الفصل السادس عشر

ذل القلب لله

الذل لله هو حقيقة العبودية وروح الحياة الإيمانية، وصفة القلوب الحية، وهو العز الكامل بالله، وكلما كان العبد لله أذل كان به أعز، ومن أحسن ما يتوسل به العبد إلى ربه دوام الذل والافتقار إليه في جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال، والمؤمن الحق من يسلم نفسه لله منكسرًا بين يديه متذللًا لعظمته، مقدمًا لحبه سبحانه على كل حب. إن طمأنينة نفسه وقرة عينه وسكينة فؤاده حين يغفر وجهه بالأرض ويدعو ربه رغبة ورهبة.

حقيقة الذل

الذل هو الخضوع والانكسار لله ودوام الافتقار إليه والانقياد التام لأمره، والتسليم التام لقضائه، والشعور بأنه لا غنى لك طرفة عين عن الله في أمر دينك ودنياك، وكل قلب فيه طاقة من الذل إن لم يبذل هذه الطاقة في العبودية لله بذلها لغير الله ولابد. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن مقام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلًا لله وانقيادًا وطاعة فهو ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لعزِّه، وذليل لقهره، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، ذليل لإحسانه عليه وإنعامه عليه[1].

الذل شطر العبادة وركنها

العبادة لله تنبني على أصلين الأول- كمال الحب لله، والثاني- كمال الذل لله ولا يكون العمل عبادة إلا بهذين الشرطين، قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى العبادة الخضوع لله بالطاعة والتذلل له بالاستكانة[2]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العبادة هي كمال

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٨٩)، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٠/ ١٧٧).

الحب مع كمال الذل[١] وقال تلميذه ابن القيم عليه رحمة الله: حقيقة العبودية الحب التام مع الذل التام[٢].

الذل حقيقة العبودية

القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر، ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ولن يجد عبد طعم العبودية والإيمان إلا بالانطراح بالذل بين يدي العزيز الوهاب يقول ابن القيم: فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجوء إلى الله تعالى والافتقار إليه، وإنما يكون ذلك برؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده ومن كانت هذه حاله وجدته وقافًا عند حدود الله، مقبلًا على طاعته ملتزمًا بأمره ونهيه، فثمرة الذل الاستسلام والإذعان لله والطاعة التامة لله ورسوله كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وكما قال تعالى في صفة عباده المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]. والله يحب من عبده أن يذل له، ومن لم يذل لله ذل لغيره ولابد ولذلك تجد من يذل للخلق في طلب قوت أو حاجة دنيوية عاجلة يصرف عن التذلل لله ولا يجد في قلبه طاقة ذل يبذلها لربه بعد أن أهدرها في السفاهات، وأراقها بلا ثمن، وبذلها بغير عوض، ولو عقل لكان كل ذله لربه وكل خضوعه وانكساره له، فيجعل الله في قلبه الاستغناء بالله والعزة بالله وأنفة القلب من الذل لغير خالقه وربه ومولاه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٠٣).

(٢) «المدارج» (٣/ ٣٠).

الذل سبيل العزة والنصرة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة: ٢٥]. كان الصحابة في بدر في قلة من العَدد والعُدد فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان أعداؤهم قرابة الألف وفي كمال من العدة والسلاح وهذه الحال أدعى للذل لله وانكسار القلب واستمداد النصرة والعون، والبراءة التامة من حول النفس وقوتها إلى حول الله وقوته وعدم رؤية النفس بحال، وأما في يوم حنين فقد كان المسلمون في كثرة من العدد فأعجب بعضهم بذلك وقال: لن نغلب اليوم من قلة فكانت الهزيمة في أول المعركة يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذلك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فتح مكة سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه الذين فتحوا مكة وبمن أسلم من الطلقاء من أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفًا والمشركون أربعة آلاف فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فلما التقوا هم وهوازن حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحدٌ على أحد ولم يبق مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا نحو مائة رجل ثبتوا معه[1].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولًا ثم يكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

إن أي عمل يقبل عليه المرء بذل وانكسار وخضوع لله وعدم رؤية النفس وصدق لجأ إلى الله تعالى فحينئذٍ ينصره ربه ويعينه ويعزه ويجبره فالعز لا يكون إلا من العزيز الحكيم، والنصرة لا تكون إلا من الله خير الناصرين وأحكم الحاكمين.

---

(١) «تفسير السعدي» [٣٦٨-٣٦٩] ط. دار ابن الجوزي.

مشاهد من ذل العبودية

أعز خلق الله بالله وأذلهم له:

إنه سيد الخليقة، وإمام البشرية كلها على الحقيقة، الذي جاء بالأخلاق المحكمة الوثيقة، وقام بالعبودية لله على أكمل وجه وطريقة، ما عرفت الأرض جبهة سجدت عليها أذل لله وأعز به من جبهة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عرفت الدنيا ولن تعرف أحدًا قام بحقيقة الذل الكامل والعبودية التامة لله إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذه لمحات من الأسوة وومضات من العبرة والقدوة من حياة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تأمل كيف خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة طريدًا مستباح الدم، يبحث عنه المشركون في كل فج وطريق لإهدار دمه وسفكه، وكيف خرج أصحابه من قبله من العذاب الأليم والنكال الشديد الذي أوقعه بهم أهل مكة، يخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة مستخفيًا ويكمن في غار ثور ثلاثة أيام ويتخذ كل الاحتياطات الممكنة التي تكفل له السلامة من أيد أثيمة خبيثة تريد قتله ووأد دعوته المباركة، ثم انظر في لفتة أخرى بعد سنوات كيف دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة بجيشه الكريم العظيم وكيف كان تواضعه وذله لربه جَلَّ جَلَالُهُ، وقف أبو سفيان بن حرب مع العباس بن عبد المطلب يشاهد الجموع الكثيفة التي تدخل مكة فاتحة منتصرة كل قبيلة معها راية لها، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ قال العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأقول: سليم قال فيقول: مالي ولسليم ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال: مالي ولبني فلان، حتى مرَّ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال: سبحان الله، يا عباس، من هؤلاء؟ قال قلت: هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهاجرين والأنصار قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قبل ولا طاقة. ثم قال: والله، يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا قال قلت:

يـا أبا سـفيان إنها النبوة قـال: فنعم إذًا قال قلت: النجاء إلى قومـك وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة فلما مرَّ بأبي سفيان قال: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فلما مرَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأبي سـفيان قال: ألم تعلم ما قال سـعد بن عبادة؟ قال: «**ما قال؟**» قال: قال كذا وكذا فقال: «**كذب سـعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسـى فيـه الكعبـة**»[(١)]، وفي لفظ أن سـعد بـن عبادة لما مر بأبي سـفيان قال لـه: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسـتحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًـا، فلما حاذى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أبا سفيان قال: يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: «**وما قال؟**» فقال: قال كذا وكذا، فقـال عثـمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسـول الله ما نأمن أن يكـون له في قريش صولة فقال رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًـا**» ثم أرسـل رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى سـعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى قيس ابنه ورأى أن اللواء لم يخرج عن سـعد إذ صار إلى ابنه[(٢)]. ثم نهض رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسـجد فأقبل إلى الحجر الأسـود فاستلمه ثم طاف بالبيت وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وسـتون صنمًا فجعل يطعنها بالقـوس ويقـول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. والأصنـام تتسـاقط عـلى وجوههـا، وكان طوافه عـلى راحلتـه ولم يكن محرمًا يومئذٍ فاقتـصر على الطواف فلما أكمله دعـا عثمان بن طلحة فأخـذ منه مفتـاح الكعبة فأمر بها ففتحـت فدخلها فرأى فيها الصـور ورأى فيها صورة إبراهيم وإسـماعيل يستقسـمان بالأزلام فقال: «**قاتلهـم الله والله إن استقسـما بها قط**»[(٣)]. ورأى في الكعبـة حمامة من عيـدان فكسرها بيده[(٤)] وأمر بالصور فمحيت. ثم أغلق عليه

(١) انظر «صحيح البخاري» حديث رقم [٤٢٨٠].
(٢) «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٣٣٧-٣٣٨) ط. دار ابن رجب و «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٦٨).
(٣) انظر «صحيح البخاري» أحاديث رقم [٤٢٨٧]، [٤٢٨٩]، [٤٢٨٨].
(٤) رواه ابن ماجه برقم [٢٩٤٧]، والبيهقي (٥/ ١٠١)، وسنده حسن كما ذكر محقق الزاد.

الباب وعلى أسـامة وبلال فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثـة أذرع وقـف وصلى هناك ثم دار في البيت وكبر في نواحيه ووحَّد الله ،ثم فتح الباب وقريـش قد ملأت المسـجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع فأخـذ بعضادتي الباب وهم تحته فقـال: «**لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، صدق وعده، ونصر عبـده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو مال أودم فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سـدانة البيت وسـقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شـبه العمد السوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريـش إن الله قـد أذهب عنكـم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب**» ثم تـلا هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣]. ثـم قـال: يـا معشر قريش، ما تـرون أني فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم قال: فإني أقول لكم كما قال يوسـف لإخوته: «**لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(١).

مـا انتقـم رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسـه وما تجبر عـلى أولئـك الذيـن آذوه وآذوا أصحابـه بالأمـس القريـب، وإنـما كان قصـد النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأول والأخـير إقامـة العبودية لله جَلَّ جَلَالُهُ وترسيخ التوحيد، وهدم الشرك، ومحاربة الباطل، وكان كل ذلك ذلًا لربه واستكانة له وخضوعًا لأمره.

وانظر إلى هذا المشهد الكريم المؤثر في غزوة بدر حين يقف الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي الله يتذلل ويدعو ويتضرع ويستنصر الله، ويستمد منه العون والسداد ويلح الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعاء حتى يشفق عليه الصديق ويقول: بعض مناشدتك ربك(٢). روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر: «**اللهم إني أنشـدك**

---

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٣٤٠-٣٤١)، والحديث الأخير أورده ابن هشام في «السيرة» (٥/ ٧٣) وضعفه الألباني في «تحقيق فقه السيرة» للغزالي ص [٣٦٩]، ط. الريان.

(٢) يكفيك مناشدة لربك.

obeikandl.com

عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»[(١)]. وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا نائم إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح[(٢)].

وحين يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بحفر الخندق حول المدينة لصد عدوان المشركين يقوم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنقل التراب معهم تواضعًا لله وذلًّا له سبحانه كما في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنة -وكان كثير الشعر- فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب يقول:**

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمد صوته بآخرها»[(٣)].

ومن أظهر المواطن التي يبدو فيها ذل المصطفى لربه عَزَّوَجَلَّ التضرع والدعاء والتبتل والتعبد لله جَلَّجَلَالُهُ. في صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: افتقدتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة، فتحسست فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت**» وفي رواية: فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللهم**

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٩٥٣].

(٢) رواه أحمد برقم [١٠٢٦]، وابن خزيمة (٢/ ٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» حديث رقم [٥٤٥].

(٣) رواه البخاري برقم [٤١٠٦]، ومسلم برقم [١٨٠٣].

obeikandl.com

إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: **«اللهم اغفرلي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفرلي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفرلي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيءٍ قدير»**[(٢)]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًا وهل كان في الخلق أو يكون أحد أصدق عبودية وذلًا وخضوعًا لله كرسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

من ذل الصالحين لرب العالمين

هذا نبي الله آدم وزوجه حواء يقولان: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وهذا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول عن ربه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢]. وهذا نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه يخرج من مصر جائعًا مطاردًا، متعب البدن، مرهق الجسد، خائفًا من أعدائه، ولما وصل إلى ديار مدين أوى إلى الظل متضرعًا بهذا الدعاء، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. وهذا نبي الله يونس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما صار في الظلمات الثلاث لم يكن له ملاذ ولا ملجأ إلا إلى ربه جَلَّ جَلَالُهُ فجعل يتضرع ويدعو ويتذلل إليه حتى فرج الله عنه وكشف ما به قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ

(١) رواه مسلم برقم [٤٨٦١]، وأبو داود برقم [٨٧٩]، والترمذي برقم [٣٤٩٣].
(٢) رواه البخاري برقم [٦٣٩٨]، ومسلم برقم [٢٧١٩].

سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وهذا كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما تخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك وجاء يعتذر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلامه ومن معه وهما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية يقول كعب: فاجتنبنا الناس -أوقال- تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، ثم يقول: حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتيني فقال: «**إن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يأمرك أن تعتزل امرأتك**» فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: «**لا بل اعتزلها فلا تقربنها**»[(١)]. إنه الإذعان الكامل، والاستسلام المطلق لحكم الشرع الشريف، يظل أربعين يومًا لا يكلمه أحد قط، وتنكر له الناس وتنكرت له الأرض ثم بعد هذه الأربعين يؤمر باعتزال امرأته فيسأل: أفأطلقها، وهذا يعني أن عنده استعدادًا كاملًا لفعل ذلك لو أمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال أبو جعفر بن عون الله: سمعت أبا وهب زاهد الأندلس يقول: لا عانق الأبكار في جنات النعيم إلا من عانق الذل، وضاجع الصبر، وخرج منها كما دخل فيها، وما رزق امرؤ مثل عافية، ولا تصدق بمثل موعظة ولا سأل مثل مغفرة[(٢)].

عن عمران بن عبد الله الخزاعي قال: سألني سعيد بن المسيب فانتسبت له فقال: لقد جلس أبوك إليَّ في خلافة معاوية وسألني يقول عمران: والله ما أراه مرَّ على أذنه شيءٌ قط إلا وعاه قلبه يعني ابن المسيب، وإني أرى أن نفس سعيد كانت أهون عليه في ذات الله من ذباب[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٤١٨]، ومسلم برقم [٢٧٦٩].

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٠٧)، ط. الرسالة.

(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٢٥).

obeikandl.com

قال ابن الأعرابي: كان أبو رجاء عابدًا كثير الصلاة وتلاوة القرآن وكان يقول: ما آسى على شيءٍ من الدنيا إلا أن أعفر في التراب وجهي كل يوم خمس مرات[١].

قال أبو أمية الأسود سمعت ابن المبارك يقول: أحب الصالحين ولست منهم، وأبغض الطالحين وأنا شرٌّ منهم ثم أنشأ يقول:

الصمت أزين بالفتى ... من منطق في غير حينه
والصدق أجمل بالفتى ... في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره ... سمة تلوح على جبينه
فمن الذي يخفى عليك ... إذا نظرت إلى قرينه
رب امرئ متيقن ... غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه ... فابتاع دنياه بدينه[٢]

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره وكان يقول: مالي شيء، ولا مني شيء ولا فيَّ شيء وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدِّي وابن المكدِّي[٣] ... وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا، وبعث إلي في آخر حياته قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده ياتي

---

(١) «السير» (٤/ ٢٥٥).
(٢) «السير» (٨/ ٤١٧-٤١٨).
(٣) يريد أن يقول بأنه عريق النسب في الشحاذة والمسكنة والذل لله تعالى.

obeikandl.com

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضراتِ
والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبدٌ له آتى[١]

قال محمد بن عبدة بن سليمان: كنت مع أبي نعيم فقال له أصحاب الحديث: يا أبا نعيم، إنما حملت عن الأعمش هذه الأحاديث فقال: ومن كنت أنا عند الأعمش؟! كنتُ قردًا بلا ذنب[٢].

قال أبو سلمان الداراني: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة[٣].

قال خلف بن تميم: رأيت الثوري بمكة وقد كثروا عليه فقال: إنا لله، أخاف أن يكون الله قد ضيع هذه الأمة حين احتاج الناس إلى مثلي[٤].

قال المروزي قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عيناه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا.

وقال كذلك: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل وذكر أخلاق الورعين فقال: أسأل الله أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟[٥].

إن ذل العبد لربه ومعرفة حجم النفس وضعفها، وفقرها وأنها ليس منها ولا إليها شيء ألبتة، كل ذلك سبيل لمحبة الله لعبده وتوفيقه له ورحمته إياه، ومتى أعجب المرء بنفسه فثم الخذلان، وسقوط المنزلة والشأن ولذلك شواهد تنبئ بذلك المعنى وتشير إليه.

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [٢٧٧].
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٤٦-١٨٤)، (٧/ ٢٧٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٤٦-١٨٤)، (٧/ ٢٧٥).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٤٦-١٨٤)، (٧/ ٢٧٥).
(٥) «الورع» للمروذي ص [١٥٢]، ص [٦].

قال عبيد بن شريك: كان أبو معمر القطيعي من شدة إدلاله بالسنة يقول: لو تكلمت بغلتي لقالت: إنها سنية. قال: فأخذ في المحنة، فأجاب فلما خرج قال: كفرنا وخرجنا[١].

وذكر الماوردي - أحد علماء الشافعية- عن نفسه فقال: ومما أنذرك به من حالي أني صنفت في البيوع كتابًا، جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي، وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به، وتصورت أني أشد الناس اضطلاعًا بعمله حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان، فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منها جوابًا، فأطرقت منكرًا وبحالي مفكرًا فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا فقالا: واهًا لك! وانصرفا. ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي، فسألاه فأجابهما مسرعًا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه، فبقيت مرتبكًا وبحالهما وحالي معتبرًا، فكان ذلك زاجر نصيحة، ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس، وانخفض لهما جناح العجب[٢].

ومما يحضرني في هذا الصدد كذلك أن أحد العلماء قال يومًا لتلاميذه: ما حفظت شيئًا فنسيته، وما قرأت شيئًا فاحتجت لإعادته- يعني أنه يحفظ لأول مرة- ولما هم بالقيام قال لخادمه: أعطني نعلي فقال: نعلك في رجلك. وكان بعض السلف يقول: أحب أن أري الله من نفسي أني أصبر فإذا ابتلاني فسوف أصبر فابتلي بانحباس البول أيامًا فجعل يصرخ ويستغيث ومرَّ على بعض الأطفال فقال: استغفروا لعمكم الكذاب.

أيها الإخوة، الذل بالعبد أولى، والمسكنة به أجدر وإظهار الفقر به أحق؛ لأن العبد فقير فقرًا ذاتيًا لازمًا له لا يفارقه ما دامت به حياة وما تردد فيه نفس.

---

(١) «تهذيب الكمال» (٣/ ٢٠).

(٢) «أدب الدنيا والدين» ص [٨١].

علامة الذل

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجماع الخشوع التذلل للأمر والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق.

أولًا - التذلل للأمر:

يقول: التذلل للأمر تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال ومواطأة الظاهر الباطن، مع إظهار الضعف والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل، والإعانة عليه حال الفعل وقبوله بعد الفعل[1].

التذلل للأمر تلمحه في حال الصحابة عندما نزل تحريم الخمر، وعندما حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وحينما نزلت آيات الحجاب وفي غيرها من المشاهد ترى الاستسلام الكامل والامتثال التام وهكذا ينبغي أن يكون حال كل عبد إذا ورد عليه أمر الله جَلَّ جَلَالُهُ عندما يسمع قول الله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. تكفيه لأن يحافظ على الصلاة في أوقاتها بأركانها وشروطها وخشوعها وذلك ذُلًا لله وخضوعًا لأمره عندما يسمع قول الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. فإنه يجبر نفسه ويلزمها غض البصر ذلًا لله، وإذا علم حرمة بيع العينة (الحرق) وحرمة تعاطي الرشوة، وحرمة التدخين؛ فإنه يسارع إلى ترك ذلك القذر الذي يستجلب له غضب الله وعذابه إن لم يسارع بالتوبة منه، وإذا أدى المسلم طاعة أو عبادة فإنه يفتقر إلى الله أثناء فعلها بأن يعينه على إتمامها ثم يظل مفتقرًا متذللًا بعد فعلها طالبًا من ربه قبولها، ولولا توفيق الله ما كانت ولولا رحمة الله وفضله لما قبلت ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]

(١) «تهذيب المدارج» ص [٢٧٦].

ثانيًا- الاستسلام للحكم:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. والحكم حكمان حكم قدري وحكم شرعي، القدري كأن ينزل بالمرء شيءٌ مقدر لا سبيل لدفعه، والشرعي هو خطاب الشرع أمرًا ونهيًا. يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن صلاة ركعتين لأمر سهل وكذا صيام يومين وإنما يبين أثر العبادة في استسلام العقل للحكم. ومعنى الاستسلام للحكم عدم معارضته برأي أو شهوة أو شبهة قد يبتلى العبد بفقد حبيب أو بحدوث خسارة في مال، فهذا أمرٌ قد قدر وكتب فحينئذٍ لابد من الاستسلام والرضا بالقضاء، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]. وشأن المؤمن إذا نزلت به مصيبة أن يصبر ويسترجع ويرضى بقضاء الله وقدره وإلا ماذا عساه أن يفعل؟! أرأيت لو قال: ليته ما خرج لو لم يخرج لم يحدث ما حدث. وهذا من خلق الكافرين الذين نهانا الله تعالى عن التشبه بهم حيث قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦]. إن كثيرًا منا عنده طغيان وذلك أنه يريد أن يعيش حياته بلا ابتلاء، وهذا لا يكون أبدًا وفي أهم الحكم من البلاء أنه يكسر الإنسان ويظهر له مدى ضعفه وعجزه، ومدى حاجته وفقره إلى ربه، وكذلك يتعلم من خلال البلاء عزة الله في قضائه، ونفاذ حكمه في خلقه. ولو عاش المرء حياته بغير بلاء لمات من العجب.

obeikandi.com

ثالثًا- الاتضاع لنظر الحق:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الاتضاع[١] لنظر الحق فهو اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها، واطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية، فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضارًا له كان أشد خشوعًا، وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه[٢].

مراتب الذل

لذل العبودية مراتب أربعة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال:

المرتبة الأولى- مشتركة بين الخلق وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السماوات والأرض جميعًا محتاجون إليه، فقراء إليه وهو وحده الغني عنهم، وكل أهل السماوات والأرض يسألونه وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية- ذل الطاعة والعبودية وهو ذل الاختيار، وهذا خاص بأهل طاعته وهو سرُّ العبودية.

المرتبة الثالثة- ذل المحبة، فإن المحب ذليل بالذات وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب فليس في ... حكم الهوى أنف يشال ويعقدُ

---

(١) اتضدع فلان أي: صار وضيعًا ذليلًا.

(٢) «تهذيب المدارج» ص [٢٧٦].

المرتبة الرابعة- ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم إذ يذل له خوفًا وخشية ومحبة وإنابة وطاعة وفقرًا وفاقة وحقيقة ذلك هو الفقر الذي يشير إليه القوم وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر بل هو لب العبودية وسرها وحصوله أنفع شيء للعبد وأحب شيءٍ إلى الله[(١)].

قلت: وإليكم الشرح والبيان لمعاني هذه المراتب.

أولًا - ذل الحاجة والفقر إلى الله:

وهو ذل الخلق جميعًا وفقرهم كلهم إلى فاطرهم وخالقهم جَلَّجَلَالُهُ فلا قوام لهم ولا حياة إلا به سبحانه وهو الغني عنهم وعن عبادتهم وهو الذي يملك الحياة والموت، والضر والنفع، والخلق لا يملكون شيئًا هو الذي يطعمهم ويسقيهم ويرزقهم ويعافيهم وهم لا يملكون من ذلك شيئًا قط. هو المقيم لحياتهم والمدبر لأمورهم، والمتصرف فيهم كيف شاء، قضاؤه فيهم نافذ، وحكمه فيهم ماضٍ وكلهم إليه محتاجون، وإليه راجعون، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فَاطِر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ [الأَنعَام: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النَّحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هُود: ٦]. وفي الحديث القدسي قال ربنا جل وعلا: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم**»[(٢)]. فالخلق كلهم فقراء

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [١٣٣-١٣٤].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٥٧٧].

إلى الله محتاجـون إليـه في إقامة حياتهم ولا غنى لهـم عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك يقول ابـن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ماذا يملـك من أمره من ناصيته بيد الله، ونفسـه بيده، وسـعادته بيده، وشـقاوته بيده، وحركاته وسـكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشـيئته، فلا يتحرك إلا بإذنه، ولا يفعل إلا بمشـيئته، إن وكله إلى نفسـه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشـورًا، وإن تخلى عنه اسـتولى عليه عدوه وجعله أسـيرًا له، فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطـر إليـه على مدى الأنفـاس في كل ذرة من ذراته باطنًا وظاهـرًا، فاقته تامة إليه، ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه يتبغض إليه بمعصيته، ومع شدة الضرورة إليه من كل وجه، قد صار لذكره نسيًا، واتخذه وراءه ظهريًا، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه[(١)].

ثانيًا- ذل الطاعة والعبودية:

وهو وصف أولئك الذين أطاعوا ربهم وأذعنوا لحكمه وانقادوا لأمره واستجابوا لقوله فهم أهل طاعته الذين يتقربون إليه ويتزلفون، ويتضرعون إليه ويتذللون، يرجون بعبادتهـم ثـواب ربهم وجنته ويخافـون عذابه ونقمتـه فقلوبهم حية بقدر اسـتجابتهم لله وللرسـول كـما قـال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وهـذا النـوع مـن الذل هـو حقيقـة العبودية وسرهـا وروحها وركنهـا وشرطهـا، فالمؤمن ذو نفس ذليلـة إلى ربه منقادة لحكمه وأمـره، لا تعارض ولا تناقـض، ولا تدافـع أمر الله، فهو يذلل نفسـه لله ويكسرها ويخضعها لحكم ربه يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: احذر نفسك فما أصابك بلاء قط إلا منها ولا تهادنها، فوالله ما أكرمها من لم يهنها، ولا أعزها من لم يذلها، ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها ولا أمنها من لم يخوفها ولا فرحها من لم يحزنها[(٢)]. وقد سبق الإشارة إلى أن العبادة تبنى على أصلين

(١) «الفوائد» ص [٧٤].

(٢) «الفوائد» ص [٦٨].

وهما كمال الحب مع كمال الذل فلا يكون العمل عبادة لله إلا إذا توفر فيه هذان الشرطان وذلك بأن يؤديه العبد حبًا لربه وتقربًا إليه وذُلًّا له سبحانه وخوفًا منه.

ثالثًا- ذل المحبة:

كل محب صادق في الحب ذليل لمن أحب، وبقدر الحب يكون الذل المقترن به، ولما كان حب الله هو أكمل حب كان الذل لله أكمل ذل، والمحب حريص تمام الحرص على رضا محبوبه، متجنب لما يسخطه، تأمل ما قاله محب لحبيبه يتضح لك هذا المعنى قال بعضهم يخاطب حبيبًا له:

لو قلت لي طأ في النار أعلم أنه ... رضًا لك أو مدنٍ لنا من وصالك

لقدمت رجلي نحوها فوطئتها ... هدى منك لي أو ضلة من ضلالك

وإن ساءني أن نلتني بمساءة ... فقد سرَّني أني خطرت ببالك

ومن تذلل المحب لمن يحب تلذذه بالمشاق التي توصله إلى رضا حبيبه أو وصاله قال ابن القيم: وقد أخبرني بعض الأطباء قال: إني ألتذ بالدواء الكريه إذا علمت ما يحصل به من الشفاء وأضعه على لسان وأترشفه محبة له، ومن هذا التذاذ المحبين بالمشاق التي توصلهم إلى وصال محبوبهم وقربه، وكلما ذكروا روح الوصال وأن ما هم فيه طريق موصِّل إليه؛ لذَّ لهم مقاساته وطاب لهم تحمُّله[1].

وقال كذلك: كمال المحبة هو العبودية والذل والخضوع والطاعة للمحبوب وهو الحق الذي به وله خلقت السماوات والأرض والدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]. والحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع

(١) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ص [٧١] ط. دار الفجر.

والـذل له، ولـوازم عبوديته مـن الأمر والنهي والثـواب والعقاب ولأجل ذلك أرسـل الرسل وأنزل الكتب وخلق الجنة والنار[١].

أتـيـتـك أعـلـن ذلـي وفـقـري ... وأسـفـح فـوق ريـاضـك زهـري
أتـيـتـك هـل مـن إلـه سـواك ... فـأسـرى إلـيـه وأيَّـان أسـرى
أتـيـتـك والـشـوق يحـدو ركابي ... وتحـلـو المـنـاجـاة دومًـا بثغري
وأفـرح أنـي ذلـيـل إلـيـك ... وأنـي إلـيـك أفـوض أمـري

رابعًا- ذل المعصية والجناية:

المعصية تورث الذل، فإذا باشر المرء معصية ألقى في قلبه الذل والمهانة بقدر معصيته لربه ولن يجد العزة إلا في طاعة الله.

قـال ابن القيم في الحديث عـن عقوبات المعاصي: ومنهـا: أن المعصية تورث الذل ولابـد؛ فإن العز كل العز في طاعـة الله تعالى: قال جل وعلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فَاطِر: ١٠]. أي: فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله، وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك. وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقـت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، فـإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبي الله إلا أن يذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيـت الـذنـوب تميـت الـقـلـوب ... وقـد يـورث الـذل إدمـانـهـا
وتـرك الـذنـوب حـيـاة القلوب ... وخـيـر لـنـفـسـك عـصـيـانـهـا
وهـل أفـسـد الـديـن إلا المـلـوك ... وأحـبـار سـوء ورهـبـانـهـا[٢]

(١) المصدر السابق ص [٥٩].
(٢) «الداء والدواء». ص (٩٠-٩١) ط. دار ابن رجب.

obeikandl.com

السبيل لذل القلب لله عَزَّوَجَلَّ

الـذل من أعمال القلوب التي تزيد بزيادة الإيمان وتنقص بنقصانه، ومن الوسـائل التي تكسر القلب وتذله لله عَزَّوَجَلَّ ما يلي:

مشـاهدة المرضى والمحتضرين والاعتبار بحالهم، وكثرة التضرع بالأسحار والقيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وتلاوة كلامه بتدبر وفهم وادكار، والنظر في أحوال الأمم الهالكة كعاد وثمـود وغيرهـم وكيف أخذهم الله أخـذ عزيز مقتدر وكيف كان بأسـه بهم وعذابه لهم وانتقامـه منهم ومعرفة أن هذا العذاب ليس ببعيد وليس بمأمون قال تعالى عن الحجارة التـي أنزلها عذابًا على الكافرين مـن قوم لوط: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هُودٌ: ٨٣]. ومـن ذلك النظر في عيـوب النفس، وآفاتها وعصيانها، وجهلها، مع استحضار نعم الله وآلائه على العبد في كل حركة وسكنة وطرفة عين، ومن ذلك الوقوف على أحوال السـلف الصالحـين وعظمة تضرعهم وتذللهم لربهم وشـدة اللجوء والفزع إليـه سـبحانه، ومن ذلك كثرة السـجود لله فأقرب مـا يكون العبد من ربه وهو سـاجد، والسـجود هـو هيئة الذل الكاملـة والخضوع التام وذلك حينما يضـع المرء أعلى وأشرف شيء فيـه عـلى الأرض ذُلًا لخالقـه، فيحقق العبد بهـذا النزول صعـودًا في معارج القرب مـن الرب ومراقي السـمو من العزيز الكريم قال تعـالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [ٱلْعَلَقِ: ١٩]. وقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنك لن تسـجد لله سـجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة**»(١).

ومن ذلك الاعتبار والاتعاظ بأهل البلاء مع استحضار نعمة الله بالعافية ولو شاء لابتلاه فكان مثل هذا المبتلى فإذا حقق هذه النظرة والاعتبار فإن هذا يحدث في قلبه كسرة وذُلًا لمن سلَّمه وعافاه وصرف عنه السوء والضر.

(١) رواه مسلم برقم [٤٨٨].

أحبتي إخوتي، الذل لله عزة للعبد وسبيل لفلاحه وهو حقيقة العبودية وأصلها؛ فازدد لربك ذلًا يزدك الله عزًا ورفعة وسدادًا، اللهم اجعلنا أذل خلقك لك وأعز خلقك بك، اللهم خذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا، وتقبل أعمالنا منا إنك أنت الرحيم الكريم، العزيز الحكيم.

❁❁❁

obeikandl.com